المقتبس

اعداء الاصلاح

الطرق شتى وطرق الحق مفردة　　والسالكون طريق الحق افراد
لا يعرفون ولا تدرى مقاصدهم　　فهم على مهل يمشون قصاد
والناس في غفلة عما يراد بهم　　فجلهم عن سبيل الحق رقاد

ما خلا عصر من عصور الاسلام من اعداء لكل جديد ومن جامدين ينكرون كل ما لا يألفون . فقد عدّ المعتزلة والفلاسفة والمتكلمون والنظار من اعداء العقل كل مدة في القرون الراقية وكان عقل الملوك هو الذي يحول في الاغلب بين الجامدين وبين ما يشتهون من الاعتداء على القائمين بتأييد سنن العقل والناصرين لقوامه ومعالم مذاهب السنة والنقل . ومن نظر نظرة مجردة عن الغرض في سيرة الناهضين للمصلحين على اختلاف الاعصار يجدهم جروا على غير ما يعتقدون وطلبوا بمقاومة المصلحين ارضاء العامة ونيل الحظوة لديهم واستتباع الحاكمين من الملوك والسلاطين وقليل جداً من كان الاخلاص رائدهم في اعمالهم ومانيهم .

يقاوم في العادة الخامل النابه لئلا يكون له مكانه كمكانته ويحمل الجاهل على العالم ليعرف بين قومه بأنه قرينه في صناعته ومثيله في فضيلته ويطعن الجامد المتعرق عن يحب ان يعبد الله بعقل ويبحث في علم الكون والفساد بروية ليتظاهر بأنه بعيد الغور شديد الغيرة وما اقواله الا رياء وما افعاله الا وساوس واهواء .

في المصلحين من الاعاظم في الامة العربية اكثر عدداً منه في الامم الاخرى قلما غضب وخصوصاً بعد القرن السابع ولما تنازعت بلاد الاسلام ملوك الطوائف وكان

اكثرهم على جانب من الجهل والغباوة لايهمهم الارضاء المتعصبين بالدين ليجروا العامة اليهم فيتقوى بهم ضعفهم ويستعينون بهم على تكبير رقعة ممالكهم وبسط ظل سلطانهم على النفوس فيستمتعون بشهواتهم وبذخهم ورفاهيتهم ·

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشتري دنياه بالدين اعجب
واعجب من هذين من باع دينه بدنيا سواه فهو من ذين اعجب

ساعد على الانتقام من العالمين العاملين نفس من ارباب المذاهب سرت احكامهم بقوة ارباعها فكان الحكم يجري على المتدعة وارباب الاهواء بزعمهم بموجب قوانين لم يسنوها ومنها المذهب المالكي الذي كان يحكم قاضيه بقتل اكبر عالم في الامة — والقتل بعد من التعزير في مذهب مالك — خالف المألوف من العادات التي اعتقدتها من اصل الدين وعد الخروج عنها كفراً والحاداً وما اسهلها واسهل صدور الحكم بهما من اعداء الاصلاح الحاكمين

سالت الدماء كالاودية في بغداد الفتن بين الحنابلة والشافعية مرات وسالت دماء كثير من الخاصة في كل قرن وعذبوا وأوذوا بواسطة ارباب الظاهر من المتطعين ممن شق عليهم ان يروا كلمة الاصلاح الديني والدنيوي تفعل في الارواح فعلها المطلوب تحدثهم انفسهم ان يساوي المفكرون وغيرهم في نظر العامة ان لم يتمكنوا من اسقاطهم بطولهم العلم وبانحصار في تقبيل الايدي وطلب الدعوات والتماس البركات عليهم دون سائر المتنسبين للعلم والشريعة ·

ومن غريب اسرار الله في خلقه ان جميع من قاوموا المخلصين من المصلحين دثروا ودثرت اسماؤهم وطالت اسماء من بادوهم بالاذى الشهداء بالجهل المركب حتى اعداء العقل السليم والتسليم الصحيحة

اين اعداء الغزالي والسهروردي والآمدي وابن جرير وابن تيمية وابن رشد ذهبوا كلهم كأمس الدابر وبقيت الامة تردد الى وجه الدهر اسماء هؤلاء المصلحين العاملين وتتناقل مصنفاتهم بالقلوب من سطور الاصلاح « فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

لا يذكر التاريخ اليوم الا افراداً ممن ناوأوا رجال العقل الرجيح والنقل الصحيح اشتهروا لاحتكاكهم بالحكام وموهوا على العامة بحسن حالهم لمظهر دنيوي ارادوه وحطام من الدنيا تطلعت نفوسهم لان يقتنوه كأن يكون احدهم قاضياً يخاف ان يشوكه ذلك العالم

المشتغلين في القضاء أو من جعله نفسه ... للاستئثار بالنظر الذي يعتقد جامع مصالح الدنيا والآخرة .

ومثل هؤلاء أشعر من القائمين بعض الحكام والعلماء من ... لأرباب الرئاسات والرياسات ... في ... [illegible] ... سلطان ... على الشرع وهم ... [illegible] ... الأمر ... في ... شكل ... الدينية والإنسانية

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

إن من يشتغلون بالحض ... [illegible] ... في الدين من ... ومن يحضر في الغالب الى الإصلاح ... [illegible] ... يكون ... الى الإصلاح والضلال ... الناس لا ... [illegible] ... ويقلدون ، وأكثر الناس من ... [illegible] ... لم ... [illegible] ... مطر

إن هؤلاء ... [illegible] ... الذين ... لأن ... [illegible] ... كانت هذه ... [illegible] ... في ... [illegible] ... [illegible] ... من ... [illegible] ... الاعتداء ... [illegible] ... والشرائع وهم ... [illegible] ... يحفظوها وهم يدعون الناس الى ... [illegible] ... [illegible] ... وإلى ... [illegible] ... والتضليل من ... [illegible]

لو كان أعداء الصالحين في ... [illegible] ... الأمة ... [illegible] ... في كل عصر ... [illegible] ... وأكثر ... [illegible] ... من ... [illegible] ... الحكومات والأحبار ... [illegible] ... من ... [illegible] ... في كل عصر ... [illegible] ... من ... وحسن الحال

(١) ... في أول الجزء الأول وآخر الجزء الثالث من كتاب إحياء علوم الدين فصول بديعة في هذا ... [illegible] ... أن أحدث .

قال حجة الاسلام الغزالي في الاحياء : « اعلم ان الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء في احكامه وكانوا مستقلين بالفتاوى في الاقضية فكانوا لا يستعينون بالفقهاء الا نادراً في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق باحكام الخلق من الدنيا واقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرهم فلما افضت الخلافة بعدهم الى اقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والاحكام اضطروا الى الاستعانة بالفقهاء والى استصحابهم في جميع احوالهم لاستفتائهم في مجاري احكامهم وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الاول وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف فكانوا اذا طولبوا هربوا واعرضوا فاضطر الخلفاء الى الالحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات فرأى اهل تلك الاعصار عز العلماء واقبال الائمة والولاة عليهم مع اعراضهم عنهم فاشرأبوا لطلب العلم توصلاً الى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة فاكبوا على علم الفتاوى وعرضوا انفسهم على الولاة وتعرفوا اليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم فمنهم من حرم ومنهم من انجح والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال فأصبح الفقهاء بعد ان كانوا مطلوبين طالبين وبعد ان كانوا اعزة بالاعراض عن السلاطين اذلة بالاقبال عليهم الا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله وقد كان اكثر الاقبال في تلك الاعصار على الفتاوى والاقضية لشدة الحاجة اليها في الولايات والحكومات ثم ظهر بعدهم من الصدور والامراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه الى سماع الحجج فيها فغلبت رغبته الى المناظرة والمجادلة في الكلام فاكب الناس على علم الكلام واكثروا فيه التصانيف ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات وزعموا ان غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة كما زعم من قبلهم ان غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد احكام المسلمين اشفاقاً على خلق الله والنصيحة لهم ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الناشبة المفضية الى اهراق الدماء وتخريب البلاد ومالت نفسه الى المناظرة في الفقه وبيان الاولى من مذهب الشافعي وابي حنيفة رضي الله عنهما على الخصوص فترك الناس الكلام وفنون العلم واقبلوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وابي حنيفة على الخصوص

وتشددوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم، وزعموا ان غرضهم التخبط ودقائق الشرع والتقرير على المذهب، وقيدوا أصول الفتوى وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرون على الآن وليس لدري ما الذي يحدث الله بما بعدنا من الأعصار فهذا هو الباعث على الاكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير ولو مالت نفوس أرباب الدنيا الى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب الى رب العالمين اهـ

هذا موجز من تاريخ الغزالي في الدين وصف به علماء الاسلام طغمتين، أهل عصره وعصره الخامس من القرن عصور النور في الاسلام فما بالك بما تلاه بعده وقد حدثت من الأحداث ما كان الجليل منه حقيراً والقليل من المفسدين مبدعاً وما بهم وما أصدق ما قاله حجة الاسلام أيضاً في هؤلاء العلماء أعداء الاصلاح والسلام في أول كتابه التفرقة بين الاسلام والزندقة قال: وأنّى تنجلي أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم، ومعبودهم سلاطينهم، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم، وشريعتهم رعونتهم، وإرادتهم جاههم وشهواتهم، وعباداتهم خدمتهم أغنياءهم، وذكرهم وساوسهم، وكنزهم سواسهم، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم. فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان أبإلهام إلهي ولم يفرغوا القلوب عن كدورات الدنيا لقبوله، أم بكمال علمي وإنما بضاعتهم في العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالها. هيهات هيهات هذا المطلب أنفس وأعز من أن يدرك بالمنى أو ينال بالهوينا، فاشتغل أنت بشأنك ولا تضيع فيهم بقية زمانك وأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى اهـ

وبعد فان في هذا العصر بات في هذا الشرق من استعلاء سيم الصعلوكين في كل عصر وتكلم فيهم وأسف حالة الحالة ووسائل الجهالة والضلالة، ان لنا لعلماء ولكن ما قاله ابو الوليد ثلاث هي أحسن ما دام ولكن حرضتهم على علم لا يقولوا هو كذا الضلال، وإن حرصت لنا أساليب الحقيقة قالوا الناس إنك الآن قبل دينا فتركنا. فصارت حالة الى ما ترى، وإن حدثتهم بطرق الإرشاد قالوا إنه يدعونا الى الاعتزال كما قالوا ما يحرف فيه من الشرع، وإن دعوتهم الى الأخذ بما صح من أحكام الحلال والحرام، وردوا التعصب لأقوال شيوخهم والخوض بمآثرهم وأحلامهم

حاليهم ومشطات المترهدين والمتورعين منهم ماتسأل الله«، السلامة، وان حييت اليهم المعروف قالوا الك ما اكثر المكرات .

حملة اهواء، لاحملة شريعة، وجعاب لغو وحشو لافواه تُلي مالقوم العقل، سلاحهم المغالطة، ومجنهم السفسطة، رأس مالهم الثرثرة، ورمحهم الغلبة بالباطل، والمهارة في المهاترة تُلي غير طائل، ماهم، من دينهم ودنياهم، ان تنفخ القابهم، وتملأ كراشهم وعابهم اوترفع بين الفاعة منازلهم، ويزيدوا بسطة في الجسم لافي العقل، وتكتب لهم في العالمين شهرة بعيدة بدون ان يعدوا لها اداة من ادواتها، ويصرفوا في التحصيل ساعة من اوقاتهم، دأبهم الحط من الفضلاء، وهجيراهم النيل من العظماء

يرعون ويلفقون، ويراوغون ويماحكون، ويكسون ماكسون، مدلسون موالسون، يعادون مايجهلون، يجحدون تُلي مايعرفون، يصانعون ولايتلطفون، يفتون وهم لايعلمون، يجتهدون ويخطئون، يهرفون بما لا يعرفون، يعدون علوم البشر ذرة من معارفهم، ويحتقرون ما لا تبلغه مداركهم كأن فضل الله محصور فيهم، وكأن من لا يجري تُلي هواهم محروم من السعادة هالك، اولئك هم ثعالب الانس يأكلون لحم اخوانهم بالغيبة والوشاية، ويمشون بين الناس بالنميمة والسعاية، اسود واكن على مخالفيهم، غوروالكن لا يحسنون الوثب الا على من لا يصلحون خدمة لهم . يفترون ويغرون، يغرون ولا يخافون، يجرءون ولا يدرون، يخرفون ولا يستحيون، يحرقون ولا ينتهون، فهم اضر تُلي الناس من قطاع السابلة، وافسد في جسم المجتمع من الادواء القتالة، يرجعون بالامة القهقرى، والدواعي تهيب بها الى التقدم، ويزينون لها الفناء والعدم، والضرورة قاضية بالتمادك والتمادن، ويقولون لها الذل والصغار، وركوب متن العار، والحاجة تدعو الى تحكيم العقل في كل قول وعمل

فاليهم ثبت اقدام المصلحين وهي لهم من الكفاءة ما يقوون به تُلي رد غارات اعداء الامة في اصلاحها التي كلفاها جهلاً وضلة بما كسبت ايدي المنافقين وما جلبوا عليها من الخزي المبين وعباد الرحمن الذين يمشون تُلي الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراماً